تأثيم المثقف؟

محمد داود
أستاذ بجامعة أحمد بن بلة وهران

في البداية لا بد من طرح مسألة في غاية الأهمية و هي أن بعض المفاهيم تحتاج إلى دراسة عميقة، لكونها ملتبسة لدى العديد من الناس، ماذا نقصد بالمثقف؟ و ماذا نقصد بالشعب؟ وإذا حصرنا هذين المفهومين في إطارهما المعرفي، يمكننا أن نتناول الموضوع بكل أريحية، حيث أن المثقف أشكال و أنواع، لكنني أجمل ذلك في أن هذا الأخير هو من ينذر نفسه للعمل الفكري و الثقافي بصفة عامة و منه نجد "المثقف التقليدي" الذي يردد الأفكار السابقة ولا يجدد فيها إلا قليلا، و يرى أنه لا يمكن إبداع أكثر مما هو موجود، لأن كل شيء قد تم قوله في هذا الموضوع أو ذاك، و هو بالتالي مثقف لا يحب التغيير و قد يقاومه. و هناك "المثقف المجدد" الذي يضيف إلى ما هو موجود أشياء جديدة و يتبنى طروحات قد تعارض ما هو قائم و مكرس، و لعل هذا الموقف النقدي هو الذي يجعله هدفا سهلا من قبل منتقديه.

أما مفهوم الشعب، المقصود مجموع السكان في منطقة معينة تجمع بينهم مجموعة من القيم التاريخية و الثقافية و السياسية و المصير المشترك، والشعب لا "يوجد" إلا في لحظة تاريخية معينة، أي حالة التهديد الخارجي أو في حالة تقرير المصير السياسي الداخلي، أي في البحث عن شرعية سياسية للمؤسسات الوطنية، مثلما يحدث الآن في الجزائر، لكن عندما تتحقق طموحات "الشعب"، تتحوّل مكوناته إلى حقيقتها الاجتماعية، أي بصفتها مجتمعا تمتلك فيه كل فئة مصالحها و طموحاتها الخاصة بها تدافع عنها و تجتهد للوصول إليها. و إن كان مفهوم "الشعبوية" يحمل في طياته الاستجابة لمطالب "الشعب"، فإنه قد تم توظيفه من قبل الفاعلين السياسيين و القادة في كل مرحلة لإسكات صوت المعارض والمختلف و بالتالي صوت المثقف النقدي، لأن الشعبوية تعتمد في كثير من الأحيان على الديماغوجية والتلاعبات الفكرية و الإعلامية لخدمة مصالحها السياسية الآنية، و الشعبوية تيارات مختلفة لا تحب التغيير في الكثير من الأحيان و لهذا لا تقبل النقاش و ترى أنها تملك الحقيقة المطلقة، و هي بالتالي تعادي

الديمقراطية بما تحمله هذه الأخيرة من قيم الحوار و التسامح و عدم الإقصاء. و تعتمد الشعبوية في الجزائر على تمثلات فكرية تقصي مجهودات الفرد و عبقريته، مثل "البطل هو الشعب"، و "اختيارات الشعب"، إلى غير ذلك من التصورات التي تُقزم الفرد و تجعله يذوب في المجموع، بينما لهذا الفرد أدوارا يقوم بها داخل الديناميكية الاجتماعية، و هي أدوار لا يستهان بها. و هذه الديماغوجية و الوطنية الضيقة والروح الأبوية و ما ينتج عن ذلك من تسلط و استبداد هي التي تُوجه ضد المثقف والسياسي المعارض عندما يقدم بدائل تعيد النظر في الوضع القائم.

و تاريخيا نجد أن المثقف الجزائري قد عرف عدة مراحل، مرورا بالثورة التحريرية و في بداية عهد الاستقلال و في مرحلة التسعينيات، ففي هذه المراحل جميعها تم تهميش المثقف والتقليل من شأنه و سجنه و تصفيته جسديا، لأن في كل هذه المراحل تم تأثيم أو بالأحرى تجريم المثقف و تم اتهامه بالتآمر على المصلحة العامة و على الوحدة الوطنية و على الثورة و على "الثوابت" و على "اختيارات الشعب"، لسبب بسيط أن المثقف كان دائما ضحية و كبش فداء لصراعات السياسية في كل مرحلة من هذه المراحل، و هو دائما محل شك وريبة و متهم سواء تكلم وكتب أو بقي صامتا. و لكون المثقف "يتدخل فيما لا يعنيه" فهو – بحكم مقامه- يملك وظيفة اجتماعية تقتضي منه أن يشارك في الأحداث و في هذا الحراك وهي فرصة لا تعوض بالنسبة للمثقف النقدي و المجدد حتى يسهم في التجديد الثقافي والمؤسساتي. وهنا لا أتحدث عن المثقفين التقليديين أو عن مثقفي السلطة الذين يبحثون وبانتهازية واضحة عن مكان لهم ضمن التشكيل السياسي القائم و ربما فيما هو قادم، لأن هؤلاء قد اختاروا مواقعهم و اتخذوا من ذلك إستراتيجية شخصية و نجد هؤلاء في الأحزاب التقليدية الموالية للسلطة و في الأحزاب المسماة "معارضة" و في قنوات إعلامية و في المواقع الالكترونية و الشبكات الاجتماعية و كلها تصب في الحفاظ على الوضع القائم و عدم الذهاب بعيدا في التغيير الديمقراطي و تحت مبررات مختلفة. فالمثقف الحقيقي الذي يدرك، بكل وضوح وتبصر، الرهانات السياسية التي تمر بها البلاد، لا يملك إلا أن ينخرط في هذه الديناميكية السياسية التي يمثلها الحراك الذي انطلق منذ 22 فبراير،

لكن بطرحه للبدائل التي تقود نحو بر الأمان، و لا اعتقد في ذلك تنازلا أو تخلي عن قناعات معينة، بل بالعكس فتواجد المثقف- التقليدي منه و المجدد- في الحراك ضروري، لكون بناء الجزائر الجديدة، جزائر دولة القانون والحريات تهم الجميع و مختلف الفئات الاجتماعية دون استثناء. و عندما تتحقق هذه المطامح يمكننا أن نتحدث و أن نتحاور حول مختلف القضايا التي تشغل بال المثقف الملتزم بقضايا الشعب، لكن هذا لا يعني تخليا عن قناعات أو مواقف سابقة بتاتا، أعتقد أن المرحلة الحالية و القادمة تتطلب حضورا قويا للمثقف النقدي لكي يسهم في بناء الوطن على أسس سياسية تجعل الجزائريين في منأى عن الاستبداد و التسلط و الظلم، وتحفزهم على القيام بواجباتهم نحو دولتهم، أي لما يخرج الشعب من صفته "الشعبوية" إلى صفته الاجتماعية، أي إلى كونه مجتمعا تتجاذب فيه المصالح و تقاوم فيه الفئات الاجتماعية من أجل حياة كريمة، يمكننا إن نتطرق إلى جميع الموضوعات الهامة دون تجريح أو سب أو شتم لبعضنا بعض.

محمد داود